حبيبة طافية على رماد
قصص من دارفور

أميمة عبد الله



بطاقة فهرسة

الطبعة الأولى 2010

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : حبيبة طافية على رماد

المـــــــؤلف : أميمة عبد الله

رقــم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٣٨٣٧٥٦٢

Tokoboko_5@yahoo.

مقدمة

أوراق من أجل دارفور

لا يمكن أن تبقى قلبك في مأمن من بؤس الغير والحياد لا يجدي نفعا في حرب وطن

حبيبة طافية على رماد

كما يصعب على الإنسان العودة إلى سيرته الأولى بعد تجارب مريرة قد تفاجئه بها الحياة كذلك الشعوب عندما تتخطفها صقور الحرب السوداء . وتعصف بها رياح المصالح الخاصة لتخلف الرماد المتهكم الساخر بالحياة والبيوت العامرة والقرى الآمنة وتبتلع في جوفها القذر كل أخضر وضرع عامر بالعطاء ، إنها الحرب ولا أسوأ من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولا أعظم من إعدام نفوس آمنة مطمئنة وإزالة قرى بأكملها من خارطة وطن .

يقلقنا فقدان مكان نشأتنا الأولى ويخلفنا مرضى بالحنين ، إنها الحبيبة دارفور مكان أشهر الخلاوى والمسايد على الإطلاق ومنطقة قصور السلاطين ومنازل الملوك ولكم هو مرهق البكاء في الحرب ، اتحد وجداني معها ، سكنت قلبي وصرت أنوح على نساء متن فجأة وغدرا وكانت الحياة في حاجة لهن ، احتلتني بلاد الفاجعة إلى أن عقرت العيون عن الدمع ،

سكنت تفاصيلها بكامل حريقه إلى أن عجز اللسان عن النطق ، كل الشواهد نطقت نيابة عنه ، بلاد شاخ الأمل فيها. أمكنة دفعت بأولادها قربانا للموت ،كانت مأساة التشرد أكبر من العويل ، الكارثة فوق الاحتمال وبعض فواجع لا نستطيع أمامها إلا الصمت ولأن الحرب تخلف الكل مشوها بالضياع وتجعل النساء عاريات حتى من جلودهن . أهو الصراع من أجل الماء والكلأ. الصراع قديم في المنطقة قد يعود إلى ما قبل أيام الإمبراطورية العثمانية حيث أن القبائل في سلطنة دارفور وسلطنة التنجر ووادي كانم والهوسا ومملكة سونقى ومالي متداخلة لا تعرف الحدود الجغرافية ، هي مزيج من القبائل الإفريقية والعربية منها قبائل مستقرة وأخرى غير مستقرة وتتألف من البدو الرحل .

تفاقمت المشكلة مع استفحال الجفاف والتصحر الذي ضرب الغرب السودان بصفة عامة لكن الحرب الآن مزقت النسيج الاجتماعي الذي لم يستطع عليه التصحر ، أعدمت الكثير من تقاليد المنطقة وزعزعت الاستقرار ، قرى بأكملها أبيدت وشرد أهلها، نساء أنجبن أولادهن في العراء على درجة حرارة لا يمكن لكائن احتمالها.

أي رياح هوجاء تلك التي اجتاحت أهل دارفور فصار إنسانها يضرب أخاه دون تبصر ، ما الذي أعدم الثقة وجعل أهل حاتم الطائي يترددون أحيانا في استقبال الضيف ، قضية شائكة متشابكة متداخلة مصالح قادتها .

الحزن ليس ترفا في المشاعر بل هو وجع وألم يبطئ تدفق الدم وذلك هو ما أصابنى وأنا أتابع تنقل أهلها المفجع وتقلبهم على دمع ورحيل . العيون تحكى قصتها حتى تقرحت الجفون وعلى الأذن بقايا طلق وصوت هدير ، إنه الرصاص على آذان لم تعتد إلا على سماع صوت تلاوة القرآن ، وعلى الأقدام تقرحات من المشي المتوا صل لساعات و ساعات وعلى الأجساد بقايا ثياب والأرض عليها حياة كانت . دارفور أرض ألجم الموت صوتها وهى تبحث عن السلام ، المناظر كلها تحكى ناطقة بلغة الحرب وحده، واللسان صامت ، عاجز عن القول وكل الذي حوله يسكته ليحكى نيابة عنه .

معسكر كلمة ، عطاش ، زمزم ، كلمة و....

قرية لبدو ، مهاجرية ، تبكى ظلما وقع عليها وتحكى حكاية حياة كان من الممكن أن تكون ، تحكى العطش والثياب الممزقة وحلم الأطفال الحفاة وتجاعيد على الوجوه ما كان ذلك أوانها لكنها الحرب ، تحكى عن حي المستقبل الذي يحلم رجاله بأن يعودوا سيرتهم الأولى

لكن حتى هذا الحلم استعصى ، قبائل فاق عددها المائة وأناس الشوق وحده جمعهم إلى خيمة بلا ثقوب بعناقريب حبال وعماد حياة . عميق الألم على الجبين ســاطع وكان من الممكن ألا يحدث ما حدث وألا يموت الآلاف دون سـبب واضـح.كيف يجتمع أن الكل يحاربون باسـمهم ومن أجلهم وكيف يجتمع أن تحصد أرواحهم قبل كل شيء.

الحرب لســان يلقف دون حذر، يلتهم دون ترو، وما تبقى غير الخراب ونعيق الحريق وأطلال تحكى وطوب كان عماد بيت في يوم، أمكنة اسـتطاعت اسـتنطاق الحزن ببراعة. إلا أن الحزن ناطق هناك قبل اللسان، شباب فقد الثقة في كل شيء وأطفال سلبوا حتى حق اللعب بالطين وأبناء راحوا هكذا فجأة ما بين لحظة قاسية ورصاصة طائشة ولا ذاكرة غير الموت .

الشـيخ العجوز يسـتعيد لحظات المغادرة إلى المعسـكرات وكيف أنهم أخذوا غدرا، لا يسـتطيع يستعين بلغة الجسد علّها تنجده ليخبر العالم بما حدث، شقوا الصحراء قادتهم خطاهم دون دليل إلى مكان ما في الصحراء وهناك لا دليل إلا القلب. عبارة قالها السلطان على دينار قديما – لا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سـبيل للمال إلا بالعمارة ولا سـبيل للعمارة إلا بالعدل – لكن هذه العبارة بالذات قالتها امرأة عادية هدها التعب ، كانت تقف وحدها في العراء ، قالت – إن الإنصاف لا يأتي بالعنف لأن العنف لا يلد خيرا قط .

الحرب لا تدّر الحياة أبدا وقد قالها عليه أفضل السلام والتسليم.

« غفارا غفر الله لها » .

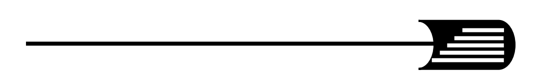
قبيلة أتت رسـول الرحمة مسـلمة دون أن تشـهر عنفا أو ترفع سـيفا جاءت بالكلمة الحسـنى والحكمة ، هي ذات الحكمة التي استعصى معها على نساء دارفور.. فهم أن الكل يحاربون من أجلهن ، كيف ذلك ؟ وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟

دارفور و صمة على الجبين ويا حسرة على قيم ضاعت ويا وجع على خلاوى وقرآن يتلى و صغار يرددون ، دموع سألتها الصحراء هل من مزيد.

دارفور نزيف مستمر والصورة تحكى والحرب تتمدد لتصير كائنا شرها يبتلع في داخلها كل الممكن ويا للألم عندما يتحدث الدمع منهمرا .

قصة 1

تامزا وأحلام مراهقة



مات الكل، الماشية، نمل الأرض حتى الذباب مات. و صلت مع العتمة الأولى، معظم الجثث كانت قرب البئر المهجور، ملتصقة بعضها ببعض وكأنهم يبحثون عن الاحتماء.

كنت حافية القدمين ،أتنفس بصعوبة وأنا أقلب الجثث صارخة بجنون. العرق تفجر من جبيني بقوة، مرارة كثيفة كست حلقي، عطش غريب وجفاف على اللسان، صرخت. لا أحد بتامزا أجاب .

عند الفجر الأول كانوا جميعهم يسعون ، غادرتهم فجرا مع أبقاري للمرعى .

كيف أصبحت يا جدي

وجدته على مخلاتيه يداعب حبات مسبحته، رأيته بصعوبة لأن الظلام لم ينكشف بعد .

احذري يا زها يمر النهار سيكون قائظا .

من كثرة الترحال كان يعرف كل شيء، لقد كنا قبيلة رحل نتنقل من مكان إلى مكان بحثا عن الزاد ومنه تعلمت .

- اعلم ياجدى لقد رأيت شمس غروب البارحة محاطة باللون الأخضر .

- جنوبا المرعى أوفر .

وانطلقت جنوبا ، وحدي ، مخالفة البقية الذين آثروا المراعى القريبة من البيوت ، وكنت أعلم يقينا أن دعواته تشيعني . ولأن تامزا تقع في مكان بعيد ، ولا أحد يمر بها صدفة ، لذا نادرا ما نرى غريبا يمر بيننا ، نسمع عما يدور من اقتتال كما نسمع حكايات جدي عن الغول وفاطمة السمحة ، نعيش هدوءا مريح ، رغم أننا كنا نعانى من العطش في مواسم كثيرة نضطر خلالها لقطع مسافات طوال لجلب الماء .

كنت أعرف الطرق أكثر من غيري، توغلت بالماشية جنوبا مجتازة العراء الرملي نحو المراعى البعيدة.

وعندما أصبحت قامتي ترى الأربعا على الأرض لمحت طيور ضخمة بلون أبيض يشقه خط مموج تطير مسرعة بحناجر قوية وغناء جماعي مخيف ، رأيتها من على البعد ترسل لهبا من بطنها نحو الأرض ، جدي يقول دائما في الصحراء لا دليل سوى القلب ، وعلى قلبي حطّ فزع لم أر له مثيل ، تركت الماشية ترعى وجريت بقوة نحو المضارب ، لم أقف لالتقاط أنفاسى كنت مدفوعة بالخوف .

وصــلت قبل العتمة ، وقفت على مرتفع عال يفصــلني عن القرية مســافة مائة خطوة، ورأيت الكارثة، اللهب موّج الرؤية وحجبها، الرماد يتطاير متناثرا نحو الفضـــاء ولا شيء غير الحريق ورائحة حياة كانت، الكارثة أكبر من العويل. أندهش لأني وقتها لم أفقد عقلي وأهيم في الصحراء مع أنه ســيكون طبيعيا إن كان ، لكنى بقيت مع أهلى محتمية بجثثهم ومتكرفســة على نفسي ، نفد كل الدمع حتى المدخر ، الصـمت ولا سـواه ، وأنا أتتبع خيوط الدخان المتجهة إلى أعلى ، سـكون عميق ابتلع تامزا .

غفوت . عامان متتاليان لم تقو فيهما شفتاي على الهمس حتى كان معي طيلة العامين ، يخدمني ، له قامة متوســطة وبشرــة ســمراء لامعة وعينان نافذتان ، بعد العامين نطقت لكنى ما زلت غارقة في الحنين ، دفنوا الجثث في مقابر جماعية متلاصقة ، أخفى معالمها الزحف الصحراوي بعد زمن .

في ذلك الصباح الموجع خسرت أهلي وأرضي وربحته هو طبيبا عطوفا، كان وقتها يعمل في إقناع المنشقين للإقلاع عن الحرب وتسليم أسلحتهم، يطوف القرى ويحلم بإشاعة السلام .

البداية بعيدة حتى أنها تختلط في ذهني وفى كل مرة أجملها وأرويها لنفسي ، هو أول من رأيته عندما أفقت من غيبوبتي تلك ، رأيته عن قرب ، أعطانى حقنة بالوريد ، العرق يفصـد جسـدي ، مسـحه عن جبيني ، بيديه خشونة ما ، نقط على لساني بعض قطرات من الماء ،

نظرت إليه بعينين غير مســتقرتين ، كان يعمل على رأس المجموعة التي تعمل على نزع الســلاح وإعادة الدمج ، ذلك القرب على مدى شهور جعلني أعرفه بعمق ، نشأ بيننا حنان خاص لم أكتشفه إلا بعد زمن ، كنت متعبة ومستنفدة ، أحن الحنين ظهري وجعلني أسـير منكفئة وكأني على وشـك السـقوط . كان مع الجميع لمعالجة مخلفات الحروب النفسـية وكنت مريضـة بالحزن ، أخبرني أنه حملني حتى السـيارة بعد أن اكتشـف أحدهم أنى أتنفس ببطء ، غادرنا بعد أن دفنوا أهلي ، سرنا النهار كله وجزء من الليل ، وصـلنا مخيماتهم مع الهزيع الأخير ، كانت على الشريط الحدودي بين كادقلي وأعالي النيل ، طيلة الشهر الأول كنت في غيبوبة أفق منها على حمى متأججة كان يحاول تقليل حدتها بلف جسدي بقماش مبلل ، يقلبني برفق وكأن جلدي سينسلخ على كفة يديه، أتقيأ باستمرار حتى أنى صرت خفيفة يحملني نسـيم الصـباح ، تدخل روحي في نوبات هذيان أرى فيها أهلي بوضـوح ودماء جافة تحيط بهم ، ذهب بيّ إلى مكان بعيد لعلاجي ، عشـت بأرض الغير سـنينا ، لم أعرف أحدا غيره ، الحنين شـغلني عما عداه ، ولأن أيام صـمتي وهبتني حبا ما عدت أحتمله ، حولني الحنين إلى الماضي إلى ظل ذاكرة ، سرطان الحزن نهشني طيلة سنين بعده عنيّ

رغم أنى الآن أكتب هذا البوح وأنا جالسة في فضاء على سطح بيت عالي بمدينة نيالا يطلّ مباشرة على وادي عميق مزدان بالخضرة على الدوام تحفه جبال خجولة الطول ، فردوس أرضى ، مضى على نهاية الحرب سنوات وسنوات وبدأ الكل يتنفس هواء السلام ، لكن كل ذلك لم يجد مع حلم ظل ملازما لى . كنت أرى أهلى جميعا متوشحين ملاءات سوداء تغطى أجسادهم يتخبطون يقعون أرضا ، جدي تنزف من أصابع قدمه دماء كثيرة ، تصير بحيرة لها رائحة كأنها رائحة المطر وكنت أسبح فيها غاسلة شعري بدمائه ، أبكى بلا صوت ، أصرخ فلا يستجيب ، هذا الحلم ظل لصيقا بىّ وكان سببا رئيسا في استحالة شعري للبياض ، الحمى فتت عظامي وأنا أسيرة ذلك اليوم البعيد بجثثهم ، دمائهم الجافة ورائحة الحريق ، الريح وهى تحمل وجعي ، كان الألم أكبر من التسامح . لكن طبيبي عاد بعد أن حقق حلمه . كلمني بصوت عميق رؤوف أيقظ كل وجع الفقد ، قال :

- غدا نزور قبور أهلك

وذهبت إلى تامزا بحنين الدنيا

وصلت ليلا، ورأيت القمر طالا، ساحرا، واعد وكنت أبتسم رغم شيخوخة الأمل

قصة 2

أحزان شق الواطه

ولدت بين قرية تريبة ومعسكر شق الو اطة ، كنا نمضى في الطريق دون أمان وحراسة بثياب قذرة ومهلهلة وجلد مدبوغ بالشـمس . نتقدم ببطء في رتل طويل من النسـاء والأطفال في مسـيرة منهكة وشاقة.

لم تكن أمى تنتظر لى مسـتقبلا جيدا ، كنت وحيدتها ، تحملني ملفوفة على قطعة قماش وسـخة ، تر ضعني لبن الجوع وتسير بطاقة مدت إليها مباشرة من السماء . أخبرتهم ساعة الطلق أنها في الليلة الفائتة حلمت بأن مصباحا من السماء سقط مهشما إلى أجزاء كثيرة ، قالت سأنجب بنتا وستعمر إلى أن تسقط أسنانها لكنها ستكون شقية .

مات أغلب الرجال، بقى النسـاء ونحن، كنا تسـعة أطفال حديثي الولادة عاش اثنان. سرنا مسـافات طويلة، لا همهمة ولا شيء مطلقا سـوى الصـمت حتى الحمير لم تكن تصـدر نهيقا. دامت الرحلة أياما، وصلنا المعسكر فجرا بحلوق جافة وشفاه متورمة.

كان رمز النجاة لنا ، ولم يكن سـوى أشـجار عارية وخيام مد البصرـ ومئات من الأطفال العراة الحفاة يتراكضون بين الأرجل مثيرين زوبعة غبار كثيفة - حسب رواية أمي - ، قضت نهارها ذاك في صـف الصـدقات والمسـاء في نقل الماء لتحممنى – ذلك ترف يحدث كل ثلاثة أشـهر – شربنا ووزعوا علينا الخيام وبينها ترعرعت غارقة في المشاهد المفجعة ، بعينان لا تستقران أبدا . .

عشـت سـنيني الخمسـة الأولى وسـط جوع ومرض وعُرى دائم، وازدحام على المرحاض إلى أن تتبول على رجليك وأنت في الصف.

طفولة لم أبتسـم فيها قط ولم ألعب ولم أدرس ، كانت أقل من الحد الفاصـل لحياة معقولة ، خوف من الرصاص الطائش وصياح على الدوام كنا نعيش فوضى العلاقات .

لم أر قريتي ، دمرت قبل ولادتى بأيام ، في ذاكرتي فقط حياة المعسـكر رغم أن وسـائل الحياة فيه الآن تبدلت بحيث أن البعض بقى فيه والآخرين رجعوا إلى قراهم .

أكتب هذه المذكرات الآن وأنا جالسة على مكان عالي يطل على النيل لأشرب مباشرة عليّ أروي ظمأ طفولتي ، اذكر ماضيّ وأكثر من التفكير فيه وقد مرت على حياة البؤس والفقر سنوات وسنوات ، أتوق لرؤية مكان نشأتي – لقد عشت زمنا طويلا بعيدة – أموت شوقا لأهلى ، خلق معسكر الجوع ذاك نوعا من التضامن الإنسانى بيننا لذا كنت أحسهم جميعا أهلى ، صبرنا على الفقر سنينا و الخيام . عشت بنصف قلب .

بعد الخمسة عشر عاما ماتت أمي وأصبت بالصرع وصرت أقع أرضا وأنا أذبد بعينين تائهتين . ضاقت عليّ دارفور وصرت أرى نفسي كما في شق ضب ، قررت الرحيل ، خرجنا ليلا نتسلل تفوح من ملابسي رائحة الخوف والعرق الكريهين ، كان علينا قطع مسافات طويلة سيرا على الأقدام .

في ليلنا ذاك قطعنا مساحات من الخضرة ، مناظر أراها لأول مرة ،إنه العالم بعيدا عن تشوه المعسكر العالق غباره بثيابي ، أتلفت أكثر مما يجب وهمس في داخلي ينبئني بأن لا شيء سيعود كما كان وبأنني لن أعود . سرت بمحاذاة الرجال بطموح مجنون وعناد أكسبتنى له حياة المهانة وذلة هبات المنظمات – أحيانا يقللون وجبة الطعام بحجة أن عددنا أصبح كبيرا .

في تلك الرحلة أدمنت الصمت حتى إنهم لا يكادون يشعرون بيّ ، أتابع تبدل المناظر بقلب ممزق ومرهق بنوبات الصرــع . كانوا يختارون أكثر الطرق خفية ووعورة بوجوه مســودة ، جلد محروق وعيون محمرة وأيدى دامية نحاول الوصول إلى الحدود الليبية .

الحسرــة تملؤني وأنا أكتب عن تلك الأيام ، ســنوات الموت والمرض ، التجاعيد التي حفرت بوجوهنا والجلد الملتصــق بالعظم ، كان العالم مشــوها بالجوع ، لا أحد يحتمل وجعي على تلك السنوات ولا حضن مخضب بالصبر

ليســتقبل هلوســة امرأة مريضــة عظامها بالحنين . وحده الورق ، تعلمت الكتابة على كبر لأكتب يومياتي التي كانت تنتهي برغبة قوية في البكاء ، سنوات ضاعت في الأسفار وتغير الأمكنة والثابت الوحيد الحزن ، و سمت حياتي بعدم الاستقرار والأمان ، عشت بلا أسرة . الحياة تمضى وأنا لا أكاد افتح حقائبى إلا لأحزمها لأحدث العالم عن حنيني ويا للألم عندما لا تقتص لظلمك .

قصة 3

الطريق عبر البرزخ

كانت الرمال مستلقية بهدوء ، سابحة في الأشعة الحارقة ، صابرة على دنو الشمس منها ، ممتدة مع البصر ، موحشة وصامتة تنظر إلينا بطرف خفي مستتر ، كانوا مستغرقين في نوم عميق كالأموات جميعهم ما عداي والزعيم ، لقد سرنا على أقدامنا مسافة يوم كامل . الشمس خلّفت آثارا غائرة على الوجوه ، حفرت خطوطا عميقة ، الشفاه صار لها لون الرماد والطريق مازال طويلا .

الحياة تبدو كنفق مظلم ، جفت ضروع الأمهات لم يتناولن طعاما منذ الأمس ، صرن هزيلات شاحبات ، الجوع بدأ واضحا في العيون ، لا أمل في الرجوع إلى الديار لأنه لم تعد هناك ديار ، كنا تحت وطأة التعب والعطش ، الجوع والرحيل . صراخ الأطفال.. يزداد.. كانوا مرعوبين وكنا في العراء ، صراخهم لم يكن طبيعيا ، أحسه أجراس تحذير من خطر قادم ، خطر لا نراه نحن البالغين . يبكون بلا دموع ، على عظمة الوجه ارتسمت ملامح ابعد ما تكون عن أطفال في أعمارهم ، الجوع سلبهم الحياة ، ملامحهم مقيدة بأشعة الشمس القوية وشقاء الرحلة ، ضلوعهم أكثر وضوحا .

مساحات من الرمال بلا شواطئ تلتحم بالأفق البعيد مع السماء ، الصحراء فسيحة مكشوفة أمامنا بلا آثار. ســحب تمتص بعض اللهب ، الجفاف اجتاح الأودية وهيمن السرــاب ، الجدب والحرب قهرا أكثر نباتات الصحراء قدرة على تحمل العطش .

الزعيم كان يتفقد في تلك الأوقات المجموعة عن قرب ، كان رجلا طويلا ، مهيبا ، صــامتا ، شـجاعا لا يخاف المواجهة ، يحترم الكل ويقدم العون للجميع ، بعد أن تفقدهم حدثهم عن الصـبر ، خاطبهم بحنان ورفق

- سنأكل الآن بعدها نواصل السير

ذهب بعد ذلك للصــلاة، قرأ آيات بصــوت مســموع ثم دعا الله أن يخفف عنهم عناء الرحلة ويلطف بالأطفال وأن يرفع عن الجميع وطأة الحنين إلى الديار . يدخل في مناجاة طويلة وحزينة بصوت مسموع .

بدأنا نبحر من جديد في الرمال بمجموعة بها خمسين امرأة وعشرة أطفال وامرأة حبلى على وشك الولادة . الوقت يمر بطيئا و كأن الدقائق أبدية ، سرنا مسافة طويلة حتى بلغنا قرية نائية تقف وسط الخلاء وحدها تعاند الريح وأنفاس الصــحراء الجهنمية . لا تكاد تلمح من البعد ، ملتحمة بالرمال تسكنها خمس أسر تقريبا ، استقبلونا خارج قطاطيهم ،

كانوا يرتدون ثيابا وسـخة مبللة بالعرق المخلوط بالرمال ، بنادقهم على أكتافهم ، على وجوههم الكثير من البثور كأنهم قادمين من تحت الأرض لم يكن لديهم ما يقدموه لنا ، كانوا أكثر بؤسـا منا ، قطاطيهم من القش مدخلها قريب من الأرض ارتفاع القطية بقامة رجل ، لا يوجد مكان نرتاح فيه واصلنا المسير عبرنا مساحات أخرى من الرمال ، العراء ما زال ممتدا ، الشمس بدأت تزحف نحو مثواها الأخير لكن أشعتها مازالت كاللهب .

قال لى دليلنا :

- بعد هذا اللسان الرملي تقع الحدود لكننا أولا سنمر بقرية تربية فهي قبل الحدود بقليل .

كنا نسير صامتين حتى صياح الأطفال هدأ ، لا ضجيج سوى صوت حوافر الحمير ، قطع ذلك الهدوء صـوت المرأة التي كانت تنتظر مولودا يبدو أنه ألم المخاط ، عسـكرنا سريعا في بقعة خلاء ثم شددنا خيمة جلست داخلها ومعها بعض النسوة ، بدأت أمها بإشعال النار قالت أنهم سيحتاجون إلى الماء الساخن ، لكنها بعد مسافة زمن قصير خرجت زاحفة صارخة تتبعها بعض النسوة وخيط دماء خلفها ، يبدو أنها كانت تنزف ، سألتهم عن زوجها قالوا أنه توفى في الهجوم الأخير الذي دفعنا لهجر الديار ، العرق يتصـبب منها بقوة ، أحاطوا بها ، كنت أقف بعيدا ، أراقب علّهم يحتاجونني ، كانت تقبض على ذراع أمها بقوة تسـتنجد كل المحيطين بنظراتها ، أشـارت لى إحداهن ، ذهبت مسرعة .

- يجب حفر حفرة عميقة بقامة رجل ونصف تقريبا وإحضار عود غليظ بطول أطول من مقدار مدخل الحفرة .

بدأنا أنا والدليل العمل بسرعة شديدة، كان أنينها في تلك الأثناء يزداد وضوحا لكنه كان أكثر حزنا وعميقا، صاحت إحداهن .

- أسرعوا ستموت .

بعد أن انتهينا أشارت أكبرهن سننا بربط الحبل بأحكام على منتصف العود بحيث يربط طرف الحبل الأخر بكفيّ الفتاة لنعلقها على أن يتدلى جسدها داخل الحفرة « تلك كانت هي المرة الأولى التي أرى فيها ولادة الحبل ».

لم تستطع الفتاة الوقوف كانت تنزف دماء غزيرة ، تلطخ ثوبها بالكثير منها ، حملتها وأنزلتها داخل الحفرة بعد أن ربطت كفيها بالحبل ، نزلت المرأة التي أشارت إلى بحفر الحفرة وجلست في القاع ، جردت الفتاة من ثيابها ، بقية النساء تحلقن على الحافة يشددن من أزر الفتاة .

- الولادة متعسرة جدا والنزيف مستمر.

وضحت المرأة التي معها في الحفرة .

أمها كانت تنتحب بصوت عالي ، ذهبت إليها تبتبت على رأسها .

- ستكون بخير إنشاء الله ، صلى وأطلبى لها الله

- النزيف قتل نصف نسائنا، ستموت

لم أدر ماذا أفعل جسـدي ينتفض كحمامة ، الفتاة في توسلاتها ، نظراتها كطفلة ، طفله أيقظت كل مظاهر الشفقة عندي ، زلزلت الأعماق البعيدة ، طفلة جعلتني موالها أحملها بيدىّ بحنان الأم الصادق بعد أن وضعت مولودها ، كانت بنتا . وضعت الجسد المغسول بالدم على قطعة قماش مفروشة على الأرض داخل الخيمة ، كانت لها قامة عالية وسمرة صحراوية أصيلة ، مرت الدقائق كأنها قرون وددت لو أستطع البقاء مع النسوة داخل الخيمة ، وجعي على الفتاة كان عظيما وشفقتي سيلا جارفا ، النزيف ما زال مستمرا هكذا قلن . اجتهد النسوة لإيقافه دون فائدة ، كانت تنظر إلى البعيد إلى نقطة في الأفق تلوح لها بالسراب والأمل الزائف ، شفتاها رغم الألم مبتسمتان كانت في الخامسة عشر من عمرها هكذا أخبرتني أمها .

الجميع كان فزعا حتى الزعيم غافله وقاره وصــار يدور حول الخيمة كحجر الرحى ما عداها وكأنها في سـكونها ذاك تعبر البرزخ إلى الملكوت المقدس والسـكون الجسـدي الخالد ، ماتت بهدوء مســتســلمة إلى الخلاص الإلهى . النســوة بكينها بأصــوات عالية ونحيب واضــعات الرمال على رؤوسـهن ، أنا أيضـا بكيتها لكن بصـمت الرجل الدارفورى الذي هدته المصـائب والمحن وسـلبته أرضه وموطنه جردته من داره وأخرجته من قريته .

بعد مسافة طويلة من البكاء المتواصل وانشغال الأخريات بتجهيز الجثمان لاحظوا أن الفتاة المولودة سـاكنة بلا حراك تحملها امرأة معمرة مكرمشـة الجلد والوجه كانت طيلة سـيرنا صـامتة ، أطلقت المرأة صرخة قوية لاتتناسب و ضآلة حجمها .

- ماتت الطفلة أيضا .

سيل الحزن جرف الجميع ، الدموع نزلت بغزارة على الرمال التي امتصتها بسرعة شديدة ، غطوا جثمان الأم بثوبها واضــعين ابنتها على صــدرها ، ذهبنا بهما وســط النواح إلى مثواهما الأخير أنزلناهما بعد أن صــلينا عليهما ، أهلت التراب ، لم أســتطع الوقوف بعد ذلك بركت على طرف القبر أدعو لها . غابت الشمس كليا وبدأت العتمة تتكاثف ، تحجب عنا المساحات الممتدة

- يجب أن نستأنف السير حتى نصل الحدود سريعا

قال الدليل :

كنا نسير متقاربين محتمين ببعضنا ، نتقدم ببطء ، الدليل يهتدي إلى الطريق بالنجوم نحن أيضا استنجدنا بضوء القمر لمعرفة مواضع القدم ينجدنا من العتمة الموحشة ، الحرب قتلت الحياة في الصحراء ،الأشجار المعمرة ، النباتات الشوكية التي تحتمل العطش وتقتات عليها المواشي أيام القحط ، كل شيء صار إلى الفناء .

كنا نقاوم أنفاس الصحراء الحارقة ببطء السير ، نسمع أصوات بعض النساء المتوجعات من هجرة الديار ومكان الميلاد . كنا جائعين كلنا الأطفال والبالغين لم نعد نحتمل ، معنا القليل من المؤن ، أغلب النساء لم يعدن يحتملن السير أكثر ، وزعت على القافلة حفنات من التمر ، نظراتهم لىّ عندما أمدهم بالتمر تترجم لغة النفوس المفجوعة، نظرات خاطفة وعابرة لكنها كافية لتترجم ما تحمله ، العطش أيضا كان حاضرا .

عسكرنا وأشعلنا النيران لصنع العصيدة، النساء يعملن بصمت لقد هدهن الجوع، صوت لاهث هتك السكون ذاك منبثقا من زيل المجموعة، صوت مرتعد نادى الزعيم، هرول في مشيته ناحية الصوت، لم يستطع ضبط خطواته المتلاحقة، هرولت خلفه، لحقت به .

- بتول !!

كانت كلمة واحدة قالتها المرأة التي كانت تقف قرب الجسد الممدد

- هل ماتت؟

سألها الزعيم

لم تقل لا أو نعم ، علقت بصرها بالأرض ، عيناها تفيضان دمعا كانت ممددة على قفاها ، فاتحة عيناها على اتساعهما ، كانتا مغمورتين في بياض شامل تحدقان في الأفق البعيد أو في سراب الوصول إلى الحدود والالتحاق بمعسكر اللاجئين هناك ، نظرتها غريبة حتى أن الخوف والرهبة تسللا إلى نفسي عنوة ، نظرة بها الكثير من الكبرياء المفجوع والمخلّف حيث الأراضي والديار والزرع ، نظرة نحو السماء نحو أمل مفقود ، كانت تقبض بيدها على حبيبات من الرمل دفناها بها ، كانت لحظة مشحونة بالخوف والخشوع . بعد الدفن وضعنا على قبرها حجرا ضخما ليكون شاهدا .

جلس الزعيم على تلة منخفضة يحدق في الفراغ

- أترى يا بني أغلب هذه المساحات الرملية كانت قرى بها مئات الأسر، كانت تفيض بالحياة

تنهد عميقا ثم واصل

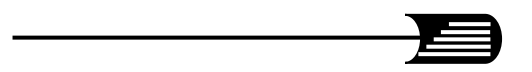
- والآن هي جزء من الصحراء والفناء والعدم .

انسحب الزعيم بعيدا، غاب في العتمة، تتبعته جلست حيث جلس، السماء صافية والعتمة غيبت الصحراء وهدوء لا يكدر صفوه شيء ولا يسمع فيه غير صوت الإيمان بالله عز وجل كان صامتا وجلا .

بعد منتصف الليل وقبيل الفجر الأول أذن المؤذن أن قوموا لموا صلة السير عبر البرزخ حتى نبلغ النجاة .

قصة 4

حريق في معسكر كلمة



خروجي في العاشر من أغسطس من عام 2003 لم يكن من أجل الشعارات التي كانت تنادى بها حملة إغاثة النازحين بمعسكر كلمة ، كانت أخبار الحرب تملأ الدنيا ، إبادة جماعية ، أطفال يستخدمون كدروع بشرية ، شيوخ يموتون من البرد والجوع ، عمليات نهب مسلح ونساء يغتصبن تحت الشمس ، كان ثمة ما هو مخفي وراء الروح ، هذه الكلمات هي أول ما بدأت به رسالتي الأولى إليه ، كنت أكتب إليه بصدق عن موجة الوله التي أصابتني عندما سمعت صوته بدء عبر الهاتف ثم عندما رأيته ، كان قائد الحملة ومنظمها وهى تتألف من خمسة رجال باستثنائه .

عند ما صافحني قررت سأذهب معهم، كان هذا الرجل محل تقدير واحترام من الجميع يتحدث كأمير ويعمل كثور ويمشى كقط، ولديه من الصبر ما يكفى ليسمع الجميع .

تبنيت كل الشعارات التي أطلقتها الحملة من أجل الذهاب معه ، رفض لكنه تحت وطأة إلحاحى لم يكن أمامه إلا القبول ، كنت المرأة الوحيدة بينهم ، ذهبت معهم يدفعني الحب لا الشفقة على أولئك النازحين ، لكننا أحيانا نقطع مسافات طويلة استجابة لنداء ما دون أن نعلم بأننا ذاهبون لتلبية نداء آخر .

الطريق بالغ البهاء ، كنا منقسمين على ثلاثة عربات ، الخضرة الصامتة تحيط بنا ، عندما وصلنا بداية الطريق المودى إلى المعسكر كان الوقت بعد زوال الشمس وقبل الغروب ، الزوال شديد البهاء في تلك المناطق ، السماء ملبدة بالغيوم، الأرض معطاءة والهواء معبئ برائحة التراب ، الطريق طويل ومتعرج ، كنا نسير ببطء الدقائق تمضى كأنها أبدية ، قرى مهجورة ، بيوت مهدمة قصة مأساة تحكى مع الزمن ، بقايا أسوار تتحدث بلغة الخراب ، قفزت صورة الماضي دفعة واحدة وأنا أتكئ على قفا السيارة التي تنقلنا ، لقد توقفنا للصلاة ، كنت غارقة في سكون الإله المقدس أبتهل وسط صمت الخضرة .

سرنا طول الليل ، كانت ليلة مظلمة وموحشة ، كنت محتمية به بذاك الحبيب الذي تعلقت به من أول لقاء قريبة منه أزداد ثقة به مع كل تقدم لنا . مع الفجر الأول قال سائق سيارتنا لقد اقتربنا من المعسكر وقبل أن يكمل حديثه رأينا دخانا يعلو في الجو منتشرا كأفاعي تتلوى ،

أسرعنا ، عندما وصلنا كان الصراخ لا يحتمل الكل مهلوعا ويبحث عن مخرج ، النساء يتراكضن في موجات عاتية حاملات الأطفال ، صرخات الا ستغاثة المجنونة تزيد من الهلع وتبعث القشعريرة في البدن ، أبقى عادل اللوارى المحملة بعيدا عن المعسكر ، ذهبوا جميعا لمساعدة الرجال في إخماد النار كانوا يعملون بسرعة ، أغلبهم لايرتدى سوى السروال لقد كان الحريق فجرا ،حاصر نصف مساكن المعسكر كان عظيما بدخان كثيف ، كل ما بالمعسكر يساعد على تكاثر السنة اللهب ، الحصير ، المشمعات المصنوعة من مواد بترولية ، سيقان الشجر الجافة ، بعض الرجال كانوا يحاولون تنظيم عملية إخلاء المعسكر لكن أصواتهم الآمرة كانت تبتلعها صيحات الموت والألم وبكاء الأطفال المربوطين إلى ظهور أمهاتهم ورعب النساء ، كان الصخب يصم الأذان لم أر أشجع من الأمهات فى ذلك اليوم ، طاقة عجيبة مدت إليهم من السماء لحماية أطفالهن ، كن مجنونات يدفعن الرجال بعيدا رغم دخان الحريق يتوغلن ويبحثن عن الأطفال المتخلفين الضائعين ليسحبوهم خارج المعسكر الهواء عصيا على الجميع ، الرياح تساعد على انتشار النيران ، كان مشهدًا مرعبًا ومتوعدًا ببؤس عظيم ينتظر ساكني المعسكر ، احترقت جلود الرجال بأشعة الشمس وهم يعملون بخفة شديدة ، أغلب الضحايا كانوا أطفالا وشيوخ أقعدتهم المفاجأة وحجّمت خطواتهم ، لم أستطع رؤية أي من أفراد حملتي وسط تلك الفوضى .

كنت أساعد محاولة تهدئة روعة النساء لقد كن أكثر المتضررين بجلودهن المحروقة وعيونهن الدامعة ووجهوهن التي غطاءها الغبار والرماد واسـودت بالهباب ، بؤسـهن كان عميقا حتى أن رأفتي تجاه أولئك النسوة ظلت لصيقة بى لأعوام كثيرة برائحتهن المميزة المخلوطة برائحة الخوف والعرق الكريه ، أصـواتهن مختنقة وكأنها قادمة من أعماق هاوية الآهة المحبوسـة في صـدورهن وهن منكمشـات على أنفسهن ، لقد قضى الجوع على ملامح الحياة عندهن .

أكثر من نصف المعسكر أصبح كومة رماد ، أشلاء محروقة داس عليها البعض ، رؤوس حاسرة زال عنها غطاءها ، غبار محتشد بالرماد ورائحة اللحم المحروق . ذهب الحريق بالقليل المدخر لم يبق لديهم حتى إناء يتسـولون به صـدقة المنظمات . قضـينا وقتا طويلا نحملق في الخراب الذي ألحقه الحريق بالمعسكر ، أنا بعينين دامعتين وهو بقلب ينبض ألما . لم أكن أعرف أحدا بالمعسكر لكنى فجأة أحسستهم جميعا أهلى ، لى صلة وجع معهم نسيت حبي الذي دفع بىّ لخوض الرحلة .

ستسأل لماذا أكتب إليك كل تلك التفاصيل وقد كنتها معي ، سأقول لك رغم حبك الذي مازال يسكنني ، لتعرف لما أنا فضلت البقاء مع أهل كلمة على العودة معك إلى الخرطوم ، لقد صار قلبي لأهلي الجدد . كنت حدث نفسيـ بشـقاء أولئك النازحين ، أتذكر تلك الطفلة التي شـدت على فستاني عندما كنت تراقبني من البعد ،

كانت في الرابعة من عمرها ، وسـخة يغطيها الغبار ، شـعرها منفوش انحنيت عليها ، حملتها بين يدي لم تكن تبكى ، عيناها جامدتين مسلطتين على المعسكر .

- هنا كنا نسكن مع أمي .

أشارت إلى كومة الرماد . لم أجد كلمات مناسبة لمواساتها ، ماذا أقول وأنا الممتلئة بالحزن والشفقة ، أعطيتها قطعة خبز كانت بيدك . أتذكر ؟

لكنها قالت أريد أمي.

- حسنا لنذهب إليها .

هزت رأسها مائلة به إلى الوراء قليلا

- ماتت في الحريق

قالتها دون دمع ، قالتها ببساطة ، اقتربت منى امرأة تسعينية تتكئ على عصا قالت لىّ اتركيها إنها ابنة بنتي

- دعيها لىّ لأنظفها

سألتنى لماذا أبقيتيها معك

- أريد مواساتهم جميعا في هذه الطفلة

ضـممتها إلى صـدري بقوة سـاعدتني كثيرا في ضـبط دموعي ومنحى بعض الهدوء، هيمن داخلي صمت التوابيت لقد غمرني الأسى

تحلق الرجال حولك كانوا متعبين مســودة وجوههم بالهباب، ثيابهم وســخة بالرماد والتراب والعرق .

الليل توغل ونحن منهمكين في توزيع الطعام للنســاء والأطفال ، الرجال قالوا النســاء والأطفال أولا ، أعطيناهم الغطاء والفرش ، بعضــهن لم يكن قادرات على الوقوف في الصــف كنت أذهب إليهن حاملة حصـتهن ، لقد هدهن الحريق وأخريات فقدن أطفالهن ، جلسـت قربهن لم أر في حياتي كلها حزناً على ملامح الوجه كتلك التي رأيتها يوم ذاك على وجوه أولئك النســوة لقد دخلن النار للبحث عن أطفالهن دون جدوى حتى أن إحداهن قد اســتنفدت قوة عشرــة رجال ليتمكنوا من سـحبها خارج المعسـكر بعد أن فقدوا الأمل في إيجاد طفلها ، لقد فقدن أصـواتهن من كثرة الصراخ والعويل على فم إحداهن الكثير من الزبد وبقايا دموع مالحة على الخدين ، بقيت قربهن مانحة إياهن بعض الطمأنينة . سهرت معهن إلى أن أخذهن النوم عنوة .

قرب الفجر رأيتك تقف بعيدا أنت أيضا لم تنم

- لم أكن أتوقع منك هذا الكم الهائل من العطف

- لهذا السبب قررت البقاء

بقى بقية أفراد الحملة يومين كنت خلالها كأفضل رجل رأيته يتحمل الآلام ويتمتع بنزاهة ومقدرة عالية على قيادة شؤون الحملة ، تفتح حقيبتك الإسعافية وتساعد الجرحى لحين نقلهم إلى المستشفى ، تمنح النساء الرأفة وتبحث معهن في أكوام الرماد عما يمكن إنقاذه ، كنت أعمل قريبة منك، أراقبك وكأني لن أحب سواك قد لا تذكر . وها أنا بعد كل هذه السنوات الثلاث والتي قضيتها في المعسكر أعترف لك بأني لم أر رجلاً يحمل حنانا على أولئك النازحين كالذي حملته أنت ، ولتعرف أنك لم تغادرني ألبته منذ فراقنا.

قصة 5

ذكريات قديمة عن يوم القيد الوطني



ولدت في قرية بعيدة ومنفية تحيط بها الرمال من كل اتجاه وتفصـلنا عن أقرب قرية أخرى لنا مسافة خمس ساعات بالسيارات السريعة ، تحيط بنا أكثر صحارى الوطن جفافا ، كنا كجزيرة وسط الرمال .

قريتنا كانت صـغيرة مسـاكننا قطاطى من القش الجاف سرجية السـقف ، في كل قطية عنقريب وصـندوق للملابس لم نكن نملك الكثير منها كما أنه لم تكن لدينا مقتنيات أخرى وكأننا رحل غير مسـتقرين ، كنا نعيش فقر مدقع ولم نعرف غيره لأن كل أسر القرية تعيشـه ، مؤونتنا الغذائية كانت دائما في حدود الضرورة كي لا نموت جوعا . أستطيع أن أقول بعد مرور هذه السنين وخروجي من القرية نهائيا أنها كانت طفولة حرمان وضـنك وخوف وورديات ليلية لأحلام لا تنتهي لكن كل ذلك لم يفلح لأن يحولني إلى التشاؤم وكره الحياة .

لم أعش طفولة سـعيدة ولم يبق الكثير من ذكريات ذلك العهد في مخيلتي فقد كانت طفولة مثيرة إحداثها للشفقة رغم أنني لم أكن أضرب كبقية أخوتي لكن ذلك لا ينفى خوفي المستمر من الوقوع في الخطأ ومن ثم العقاب القاسي . لذا كنت أتحرك كنحلة وأعمل كثور ، أدخل جميع القطاطى ، أسـاعد الجيران ، أجمع الحطب لإشـعال النار ، أجلب الماء من الحفير ، أطعم البهائم والدجاج لم أكن أجلس كثيرا . فقط بالقدر الذي أحتاج فيه لالتقاط أنفاسي فقد كان الجو دائما حار والهواء ساخن نهارا .

عندما لا يكون هناك عملا أنجزه كنت أتسكع بين القطاطى أتلصص على حظائر البهائم أو أجلس في زيل القرية ألعب بالرمال أصنع حفرا كثيرة وبيوتا عظيمة ذات تصميم متاهى ، أخطط باصبعى لمدن مترامية الأطراف بها مدارس وأطفال وكتب وأقلاما وورودا (أول مرة أرى فيها وردة عندما أحضرـها أخي الذي كان يسافر إلى الخرطوم البعيدة للدراسة كانت وردة جافة لكن خيالي أعاد إليها الحياة) .

لم يكن لىّ صـديقات رغم علاقة الرحم التي تربطني بنصـف سـكان القرية إلا أنني أحس بأنه أفضـل أن أكون وحدي ، عادة أجد صـعوبة عندما أضـطر للخوض في حديث حميم مع الناس . عشت زمننا طويلا هكذا .

عندما أصبحت في السابعة من عمري حدث ما جعل حياتي ترّج وتذهب دفتها إلى قدر مغاير تماما للقدر الذي صاحب أختيّ اللتان تكبراني ، أذكر ذلك اليوم كما لو كان بالأمس القريب ، كان يوما هاما محتشدا بالصور الرائعة . وصلتنا أنباء عن حملة تعلم تقودها أحد الإدارات بوزارة التعليم في الخرطوم البعيدة (ذلك هو الا سم الذي كنا نطلقه عليها عندما كنا صغارا وكان يعجبني) قالوا أنهم سيجوبون القرى البعيدة لسرد محاسن تعليم البنات (حتى ذلك الوقت لم يوجد أب واحد على استعداد لأن يرسل ابنته للخلوة إما لأنها مختلطة بنات وأولاد أو لأنها بعيدة) .

ما الفائدة من تعليم البنت

يجدر بها مساعدة أمها

هكذا كانوا يقولون

تحدثت القرية كثيرا عن تلك الحملة بين معارض لها ومؤيد وكنت أتتبع أخبارها إلى أن وصل الوفد الذي يسبق مجيء الحملة إلى قريتنا وبدأت جلسات التفاوض حول الأمر بالساحة التي كان رجال القرية يصلون بها ، كانت لا تنقطع إلا للصلاة أو الطعام ، وهكذا بدأ المستحيل ممكنا ، وافق قادة القرية على استقبال الحملة وتسجيل البنات للعام القادم على أن يشيدون قطية قرب المساكن مفروشة بالبروش .

ستستقبل القرية الحملة غدا ، انتشر الخبر حتى القرى المجاورة ، كنت مهتمة بإيصال الخبر لكل قطية ، قالوا أن الحكومة ستأتى من الخرطوم البعيدة ، لم أكن أعرف ماذا تعنى كلمة حكومة لكن من الهيبة التي تحيط بالكلمة عندما تلفظ عرفت أنها شيء عظيم .

حطت العتمة وهبط الظلام كان الليل مضاء بالنجوم وبالأحلام التي ستكون صرحا شامخا بعد يوم الغد ، البرد قاسيا ، استثنائيا كيوم الغد ، البرودة تخترقني حتى العظم وأنا لاآبه للغطاء ولا أنقطع عن التفكير بيوم الغد ، كنت أصغى للصمت من حولي مستلقية على عنقريبى الصغير غارقة في هالة ضوء ومتسلقة أحلامى تجاه السماء أحاول عد النجوم ، لم أكن أعرف الحساب لذا كنت أكتفى بأن أقول .

هذه نجمة وهذه نجمة وهذه نجمة

لكن بعد أن تصلنا الحملة وأذهب إلى المدرسة وأتعلم الحساب سأتمكن من عد النجوم، غفوت .

عندما فتحت عيني بكسل كانت النجوم قد اختفت وبدأ الأفق ينجلي، كان ألق الفجر الأول البيت ساكن كموجة رمال

إنه يوم وصول الحملة

نحرت الذبائح في الساحة ، الكل كان يعمل في نشاط محموم تحضير الكراسي التي جلبها الإمام من الأبيض ، شدت الصيوانات في العراء للظل وعلقت مكبرات الصوت التي بهرتني حينها أشعلت النيران لصناعة طعام الضيوف القادمين . وزعت أوراقا كثيرة وملونة وجاء أناس كثير ، عربات محملة بأشياء كثيرة أراها للمرة الأولى في حياتي ماء معبأ في قوارير (احتفظت بالكثير الفارغ منها) ، وحلوى وزعت علينا نحن الصغار وخبز . ارتدينا أخوتى وأنا وكل بنات القرية الفساتين المخصصة للأعياد ووضعنا طرحا بيضاء على رؤوسنا ، كنا سعداء نبتسم دون سبب واضح .

نساء كثير جئن مع الحملة ومن أجلنا يرتدين ثيابا بيضاء نا صعة كأنهن ملائكة للرحمة ، أحداهن خطبت فينا قالت كلاما كثيرا قالوا أنها قادمة من الخرطوم البعيدة ، لها قامة عالية وعينان غارقتان في فرح لا نهائي وبشرة متلألئة ، وأسنان متراصة تبرق عندما تتحدث أو أنا تخيلتها هكذا ، كانت تتحدث بثقة وبكلمات واضحة رغم أنى لم أميز معناها كنت أنظر إليها وأقول لنفسي .

أنا قادرة على أن أكون مثلها ، أرتدى ثوب ناصع وأحمل قلما وورقة وأقول كلاما كثيرا منمقا . دون أن أع عدلت من وقفتي نصبت هيئتي على استقامة .

تقدم رجل له هيئة ملاك بجبين عال ووجه كامل التناسـق ، كان يسـير بخطى واسـعة ، قوية دون أن تسـلبه أناقة الحركة ، قال كلاما كثيرا حماسـيا لأن الجميع كانوا يصـفقون بقوة ، كان الكلام يخصـنا ويحس على تعليمنا ساردا كل مزايا التعليم ورابطا معها الصحة وحسن الخلق ومستقبلنا كأمهات صالحات . بعد أن أكل الضـيوف ونحن من الطعام الذي كان كثيرا جدا اصـطفينا في صـفوف أنا وكل الفتيات اللائى في عمري وزع لنا ذاك الرجل الخطيب ومعه رجلين آخرين وامرأة كراسات وقلم وممحاة ومسطرة وملابس جديدة وجميلة وطرحة للمدرسة .كانوا ينادون علينا بأسماءنا ، عندما قالوا اسمى لم تستطع قدماى الحركة بيسر كنت أتقدم ببطء نحو ذلك البساط الممتد كقطعة سحاب .

كان الاحتفال ساحرا وجميلا كالحلم .

أكتب هذه الذكريات التي شـكلت جزءا هاما من حياتي فقد صرت مديرة لذات المدرسـة التي بدأتها تلك الحملة بقطية نصـبت في العراء وقد صـارت الآن سـبعة قطاطى بسـور وكرانك يجلسـن عليها الصغيرات .

قصة 6

أوراق قديمة



عندما يأتى المساء نقول لها ياجدتى احكى لنا

حادثة تبر

حلّ الغروب بعد يوم عرق بدأ الصيف مبكرا ومبشرا بلهب ، كانت حاجة علوية تحلب العنزات استعداداً لشاي المغرب قبل عودة زوجها إنها امرأة موفورة النشاط رغم تجاوزها الخمسين ، تسكن في زيل القرية مع أمها الحاجة نبوية تلك المرأة المدينة المشـيدة عبر الزمان دهاليزها ممتدة ، بكل ركن حادثة زمن وفى كل منعطف حوار بعضه تآمرت عليه رمال النسيان التي لا ترحم والآخر تشتعل به الذاكرة وينضجه ضوء القمر ، أوشكت على المائة لكنها ما زالت تحتفظ بلسان كأنه السيف ، تعرفنا من أصواتنا ولا تحفظ أسمائنا .

قريتنا ليست بالقرية الكبيرة فقد كانت تضم عشرين بيتا جميعها من الطين ، بها مدرسة ابتدائية ومركز صحي ، كنا نرتدي (العراقي) ولا شيء سواه . السمر لا يحلو إلا مع الجدة نبوية تحكى لنا الحكايات ونحن كأن على رؤوسنا الطير ذاكرتها تفيض بقصص الجن لإيمانها الشديد بهم وأيضا خوفها منهم لذا كانت صلاتها على النبي ﷺ لا تنقطع .

بعد أن حلبت الحاجة علوية اللبن ودخلت به حتى بدأت الظلال في الانحسار مؤذنة بميعاد شرب الشاي ثم النوم لكن نحن الأطفال نصيبنا من السعادة كان وافرا تلك الليلة لقد أر سلت لنا الجدة محمود ابن الحاجة تدعونا لتحكى لنا حكاية استكملتها الذاكرة بعد معاناة . عندما ذهبنا إليها كان العرق يبلل ثوبها من الجهد الذي بذلته في استحضار قصتها رغم برودة أطرافها ، تغطى رأسها وجسدها بثوب أبيض نادرا ما يفارقها ، شعرها المجعد بدأ واضحا من ثقوب الثوب قالت:

- هذه القصة حقيقية وقعت منذ عهد بعيد سمعتها من جدتي .

جلسنا حولها كنا نحيط بها كأسراب الحمام (بعراريقنا) الوسخة . نستمع إليها في خشوع ، جلسنا على مسافة قريبة منها نكاد نكون ملاصقين للعنقريب الذي تجلس عليه في نصف دائرة مما شجعني للتسكع في ملامحها وحفظها عن ظهر قلب بدأت تحكى.

هذه القصة حدثت في قرية بعيدة تدعى رأس الفيل في أقصى الشمال حيث لا بشر يسكنون ولا يجاورون في قبيلة رعاة رحل نسيت اسمها ، الصحراء تمتد أمامهم تتحداهم وتغريهم بها ، اختاروا مكانا لاستقرار الرحيل لوجود بئر هرمة بها بعض النبض آثروا إصلاحها على أن يحفروا دون أن يعلموا أن هذه البئر مملوكة لمن سخرهم سيدنا سليمان ولم يكتشفوا موته إلا بعد زمن . غافلت الحكمة عقلائهم لم يفطنوا إلى أنه يهوى استيطان المهجور وبقايا الرماد ، بنوا بيوتا من الطين وجاوروهم . الجن لم يزعجهم لأنهم لم يتطاولوا عليه ، قرابة العام مرت دون أحداث تذكر سوى إنجاب زوجة أحد أغنياء الرعاة ببكرها كانت بنتا أطلقوا عليها اسم رحيل ، كانوا سعداء بها ومنذ صغرها وضحت وضاءة بشرتها ، حلاوة عينيها ، ملاحة فمها واعتدال قوامها ، وعندما بلغت الخامسة عشر بان التفليج في أسنانها .

كل تلك المدة لم يخن الجن عهده لأنهم لم يبادروا بخيانة لكن وقع المحظور وتطاولت رحيل في يوم مطر أعقبه غيم غطى على الشمس سويعات ، كانت تنصت لثغاء الجديان وضجيج الإبل ، أغواها الماعز غافلها تبعته وبلغت المحظور عبثت بالرماد الذي يتاخم شريط الحشائش الجنوبي والذي يطوق القبيلة من تلك الناحية وحتى الجنوب الشرقي وجدت قطعة ذهب براقة

حيث بقاياهم وبعض عظام الأولين ،وجدتها داخل جمجمة بيضاء ناصعة أخذتها دون إذن وهربت ، لحق بها صعلوكاً منهم ، كان يراقبها منذ زمن أعجبه شعرها و شموخ أنفها وأناملها الطويلة ، أخذتها إلى بيتها ، دفنتها في أحد الأركان ، منعت تلاحق الأحداث حينها من موت لجارتهم ومرض أمها من إخبار أحد .

مرت السنين ورحيل تتفتح كزهرة برية ، نسيت حادثة القطعة البراقة لكن صعلوكهم لم ينس ، أصبحت رحيل حديث الشباب كل يتمناها بعد أن أصبح جمالها واضحاً للعيان . تقدم محمود لخطبتها ، أعطوها له ، زفت في يوم ليس كالأيام . ارتفعت الشمس قليلا عن خط الأفق استأذن محمود زوجته ونام ، ساعات انقضت وهو نائم .

- ماذا حدث لمحمود أيعقل أن ينام كل هذا الوقت

هكذا تمتمت لنفسها عند سماعها صوت أمها وأم محمود ، احضروا لهم طعام الصباح ، أخبرتهم أن محمود لم يستيقظ بعد ، ذهبت أمه لتوقظه بعد دقائق قليلة سمعوا صراخها ، خرجت تترنح وعيناها تفيض دمعاً وهلعا ، مرت أمامهما بخطوات مسرعة ، متعثرة وصارخة

- مات محمود .. !

لحقت والدة رحيل بها ، انتشر الخبر مع الريح وعم الحزن ، مات محمودانكفأت الشمس أو هكذا رآها والد محمود ابنه مات ، كان الحدث أكبر منه . ذهبت رحيل إلى منزل والدها بعد أن كتم الخجل ما تبقى من همس كان ينسج حولها .

جسم على قلبه هم بحجم الجبال ، تنازعه الأرق ماذا فعلت ابنته لمحمود ، سؤال يطرق ذهنه بقوة رغم مرور ثلاثة سنوات إلا أن القصة وكأنها حدثت بالأمس القريب ، القبيلة لن تغفل أبدا عن الحادثة . في يوم جمعة طرق بابه غريب أخبره أنه من الشرق وأنه تاجر جمال وبأنه رأى عند البئر فتاة ما زادها أدبها إلا جمالا وهو هنا الآن لأنه يريد الزواج منها ، أخبره والد رحيل بقصة محمود ، لكن الغريب ابتسم – ذلك قضاء الله ولا ذنب لرحيل فيه

- نعم لا مرد لقضائه

- لكل شيء حكمة سبحانه

- سأحملها لأهلي صباحا

- إذا غدا ترحل إلى الشرق

- إنشاء الله لذا أرجو أن يكون الفرح مساء

ذفت له في حضور الأقارب فقط . لكن رحيل لم تسافر إلى الشرق و الغريب أيضا . كست الغيوم القرية صــباحا واحتوى العم يزيد ســواد قاتم وهو في طريقه إلى خيمة الغريب بعد أن أبلغوه خبر وفاته . الفضــيحة هزمته وأزابت كل وقار عنده ، ابنته هدته ، أحس بالعجز والفراغ يملأ قلبه ، شــكى إلى الله همه ، ســيطر عليه توتر جعل أطرافه ترتعش . أصــبحت الهمهمة صراخه ومن تمهل بالأمس بكر اليوم ، اتكأت القصة على كل باب

- مات الغريب

ضجت الأرض بالموال وتعالت الهمسات ، علا بوقاحة ، امتنع العم يزيد عن الخروج كان يزرع (حوش) منزله بخطوات مجنونة ، يرهق جسـده لا يستقر على حال إلى أن يتفصـد العرق من الجبين ويبلغ حد الإعياء بعدها يهمد على ظل شجرة خلف منزله .

حملت الطيور الخبر قطعت به الصحراء على جناح الريح و صل القرى البعيدة سمع بها شيخ عبد الجواد ، قريته في جنوب دارفور ، استهوته القصة لأن اللعب مع الجن كان يعجبه يرى في تتبع الغيب مهنته ، استعد للسفر أخذ ما يلزم وشد السرج صباحا ، رحل سرا .

وصـل الشـمال وبدأ بالسـؤال عن قرية رحيل ، كان رجلا مهيبا له لحية كثيفة بيضـاء وحاجبان غزيران نحيف ، قسمات وجهه تدل على الحكمة ، بعد أيام أنزل السرج في قرية رحيل قصد بيتها ، حدث والدها ، طلب منه أن يرسل في طلب إمام الجامع ليعقد عليها ويؤاخذها دون ضجة وهكذا قضى الأمر . انتبذ بها مكان خلاء ، لم يمسـها ولم يتناول الطعام لأن مصـارعة أهل الخفاء لا تقبل الهوادة ، تلي القرآن طيلة الليل وأطرف النهار . في الليلة الثانية وهو قائما يصلي رأى أمامه شبحا ينزل من السقف عاريا لا يستره شيء ، وا صل صلاته جلس الشبح قرب رحيل ، هكذا حدث في الليلة الثالثة بعدها قرر الشيخ السفر ، ترك رحيل تبكى حظها ، أخذ عصاه وإبريقه وبعض التمر ومضى يطلب النجاة لرحيل ، كانت تراقبه إلى أن ابتلعته الصـحراء لسـعتها موجة حر ، تراقصـت حولها ألسنة السراب وهى تحاول جاهدة رؤية شبح زوجها وهو يمضي شمالا دون أن يلتفت ، يمشي محاولا انتزاع نعله من الرمال الرامضة ، الشـمس تلهب رأسه ، عرفه يقضي عدم ستره إنها تعاليم الجن . طوال الطريق يسبح ويقرأ تعويذا يخصهم . سار ثلاثة أيام غذاءه البلح والماء، في اليوم الرابع جلس أمام بناء خرب تحفه حجارة ضخمة هي بقايا حائط قديم اتخذه ملاذا . ركز بصره على صخرة ضخمة أثناء قراءة التعاويذ التي أخذت الليل كله ،

بعدها سـمع الشـيخ عويلا عقبته قهقهات عالية ، أغمض الشـيخ عينيه وما كاد يفعل حتى وجد نفسـه في مدينة عظيمة لها سـور عال وأناس بعضـهم عراة وآخرين يرتدون خرقة داكنة ، شـوارعها تضـج بالحركة ، عرف الشـيخ أنه يوم المحكمة العامة ، اتخذ طريقه دون أن يلتفت ، كان خائفا لكنه ا ستمسك با سم الله وعزم ، اتجه إلى مكان عالى خمن أنه مكان الجمع ، عندما و صل وجد مجموعات تقف بعيدة عن بعضها وتختلف في سحنتها وملامحها عرف أنهم جماعات من قبائل مختلفة جاءوا ليوم المحكمة المشهود بعضهم يعلق بصره بالأرض وعندما تلتق صدفة بنظراتهم يصدك خجل يسكنهما كخجل العذارى ، سـأل عنهم همسـا عرف أنهم مسـلمين ، شـق الجمع إلى أن وصـل المنصـة ، كانت ضخمة عليها قاضى رقيق الصوت سأله بأدب

- ما مسألتك ؟

- أشكو أحد.

- ما فعل.

- يضاجع زوجتي ويمنعني عنها.

- أتعرفه؟

- إن رأيته أعرفه.

أمر القاضى بجمع صعاليك المدينة ثم اصطفهم أمامه سأله.

- أيهم ؟

كان شيخ عبد الجواد ينظر إليهم راجيا من الله أن يكون بينهم ، وكان له ما أراد ، أشار إلى أحدهم.

- هذا هو.

صرف القاضي الباقين وأبقاه.

- يا سيدي القاضي هو الذي تزوجها بعدى ، أنا تزوجتها مذ كان عمرها خمسة عشر عاما ، لقد أخذت مهرها من ثروتي.

- ماذا كانت.

تعجب الشيخ من القاضي فهو يكتفى بجملة من كلمتين فقط.

- قطعة ذهب ورثتها من أمى.

- إذا أعدناها.

- لا أقبلها أحب زوجتي.

أمر القاضى بجلده بالسياط ، تهاوت عليه دون رحمة.

- أريد قطعتي وسأتركها.

أمر القاضي الشـــيخ بإعادة قطعة الذهب ورجاه أن لايخونوا العهد لأن البئر ملكهم ثم طلب منه أن يغمض عينيه وعندما فتحهما كان أمام خيمته ، وجد رحيل ترتعش والحمى تتنازعها ، ســألها أين خبأت قطعة الذهب ، ساعدها على التذكر بتلاوة القرآن على رأسها ، قالت بمكان في حوش منزلنا ، ذهب ، عندما وصل بدأ يحفر ، العرف يلزمه أن لا يحادث أحدا ، ظل يحفر إلى أن أوشكت الشمس على المغيب ، وجدها بعد عناء جلس قابضا عليها ثم قال كما أمره القاضي.

- أعدنا الأمانة فأوفوا العهد.

وهكذا رجعت قطعة الذهب إليهم و شفيت رحيل من الحمى وأخذها شيخ عبد الجواد معه مسافرا عندما انتهت القصة كنت مشدودا لدرجة أنني لم أع أن الجدة نبوية كانت تضحك لاتساع عيني وبريقهما ودون أن أحس قبلت جبينها وجريت.

قصة 7

أحداث اغتصاب معلن

كان ياما كان وكان ياما كان تقولها الحبوبة الطاعنة في دروب الحياة العميقة الجالسة على كرسي القدم ، وكان ياما كان تأتى بعدها سيرة فاطمة السمحة وحكاية حسن الشاطر مع الغول اللي خطف فاطمة السمحة .

لكن فاطمة السمحة لم يخطفها الغول ولم تتخبط في بطنه ، فاطمة السمحة كانت طفله ذات ضفائر وشريط وجلد شفاف له لون البرتقال ورائحة النعناع ساكنة وتتحرك بلا ظل وتتحدث بصوت بالكاد تسمعه كانت تبدو كملاك بابتسامتها الحلوة وصمتها الذي يميزها عن إخوتها الذكور ، تعيش طفولتها بين حكايات أمها التي تحلق بها بعيدا ، كانت وحيدتها ورفيقة زياراتها

- تعالى يا إرم يا رفيقة السماء

هكذا اعتادت أمها أن تناديها كانت امرأة أربعينية مرحة ودائما تتدبر أمرها لتتجنب كل ما يكدر صفو حياتها وأبنائها الذكور وابنتها ، تكره أن تتحدث بالسوء عن أحد تعيش متسامحة مع جيرانها ، تعمل معلمة بالمدرسة الابتدائية تخرج صباحا

بعد أن يذهب أولادها إلى المدرسة وتذهب إرم إلى الخلوة ، أسرة تعيش بمشاعر طبيعية دون أن يعلموا بأن حدثا ما سيقع ويغير مسار تلك العاطفة الطبيعية إلى الأبد . كان ذلك في صباح خريفي غائم، كل شيء بدأ هادئا وجميلا خاصة للأطفال فاليوم سيقام حفل زفاف ابنة الأسرة التي يقع منزلهم في نهاية الشارع الذي تسكنه إرم ، كانت مشغولة مع الجميع بزفاف المساء ، عادت من الخلوة سريعا وذهبت مع أمها إلى بيت العرس، كان يوما سعيدا لعبت فيه كثيرا مع بنات الجيران وتلك فر صة لم تكن لتتاح لها دائما ، لقد كانت أمها حريصة على قرب ابنتها منها دائما .

ليلا سبقها إخوتها الذكور إلى مكان الحفل ، لقد كانت محتارة ماذا ترتدي لكن أمها استطاعت إقناعها بأن ترتدي الفستان الذي كانت تدخره للعيد القادم مع حذاء لامع ونظيف ، بدت كأميرة بخصلات شعرها المتطاير على الجبين ، خرجت مسرعة علّها تلحق بإخوتها الذكور – حتى دون أن تقول لأمها قد ذهبت – فقد كان صوت الحفل يزحم المكان .

كان واقفا أمام البيت المقابل لمنزلها ، رآها تتلفت ، ناداها في الظلام ، اقتربت منه ، عرفته على الفور لقد كان شقيق محاسن صديقة أمها المقربة . جاء إلى الحي ليتولى حراسة منزل محاسن فقد ذهبت لقضاء الأجازة هي وأبنائها وزوجها . غافلها بابتسامة إنسانية حنون ودعاها إلى الدخول بغرض مساعدتها وتوصيلها إلى مكان الحفل ،

كانت نفسه خاوية إلا من الغدر ، نظر إليها بعين صقر يتربص فريسته عن قرب ، لقد حط على قلبه الشيطان ، كان مرتديا قميصا بلا أكمام وسروال ، له ملامح تابوتية مظلمة ووجه حيوان على وشك الانقضاض ورأس يميل قليلا إلى الوراء به بعض الشعر المجعد المتناثر في الأطراف والوسط .

لم يفتقدها أحد لقد ظنت أمها أنها في الحفل مع إخوتها الذكور، بعد أن انتهى الحفل عاد إخوتها دونها

- أين إرم ؟ سألتهم بجزع واضح ناهضة عن سريرها

- لم تكن معنا لقد ظنناها نامت

- لا ! لقد خرجت تود اللحاق بكم

عم الخبر الحي اختفت إرم الكل كان يبحث عنها ، لكنها كانت في وكر الشيطان لقد أغلق عليها الأبواب وهى في هدوء طفولى مندهشة دون أن تدرى أنها باستجابتها تلك قد بدلت حياة أسرتها وإلى الأبد .

اختفت . جزعت الأم الرؤوم ، الأب يبحث بأنفاس لاهثة من الخوف على صـغيرته دون أن يدرى من أين يبدأ البحث ، تبعثر الأخوة الذكور مع أبناء الجيران ، الكل كان مشـغولا بالبحث . كان يفصـلها عنهم حائط وكانت هناك تموت ببطء ، الضـجة ملأت المكان ، أمها تبكى بكاءٌ يائسـا وحيدتها ضـائعة في الليل ، بكاء صـار بعد ذاك نداء لا يخمد وحنين لا ينقطع وحزن بدأ حينها أبديا ،ومنذ ذلك الليل الذي اختفت فيه إرم وإلى الأبد ظل الحزن لصيقا بجلدها .

كتم صراخ الطفلة بقبضـة فولاذية وهو يرمى بها تجاه السريـر ، ضربها على خديها وهو يشـقها ، كتلة من شعرها خرجت بين أصابعه عندما بدأ يخترقها ، عضته على كتفه فضاعف من عنفوانه ، كان حيوانا بشريـا بلا عينان وجبلا عظيما بثقله بلا أطراف وقلب ، لم تكن تفهم ما يحدث لها لقد كان ما وقع يفوق احتمالها ، تحول لون جلدها إلى السواد الفاحم وتاهت عنها الرؤية وسقطت في بئر عميق .

وجدوها سـابحة ببئر السـيفون بعد ثلاثة أيام من البحث المتواصـل غارقة فيه بعد أن انتشرـت رائحة غريبة آتية من بيت وسط الحي، ذهبت الشكوك إلى بيت محاسن .

خارت ركبتاها عندما سمعت الخبر ، أغمضت عيناها وسقطت مغشيا عليها ، كان الخبر يفوق عقلية الا ستيعاب حتى أن الهواء تجمد لثوان . انفصلت عن العالم و صارت لا تتحرك جالسة أغلب أوقاتها تناجى ربها وتزداد نحولا وضعفا كل صباح ، لم تستطع احتمال موت ابنتها الوحيدة . كان الحدث عظيما لقد ماتت بهبوط حاد في الدورة الدموية والقلب أثناء اغتصابها ، الصورة المتخيلة والمرعبة لابنتها وهى في و ضعها المظلم ذاك ظلت لصيقة بها ، لقد جعلتها الفاجعة بكماء – لا توجد كلمة أدق وصفا لما حدث لكنها كانت فاجعة حقيقية – ، تفكر دائما فيها وهى على سرير الشيطان ملطخة بالدماء ، عالقة كانت في تخيل تلك اللحظات التي سلبت وجهها الحياة فصارت كأنها عجوز وهى في العقد الخامس . لقد قتل ابنتها ورماها في بئر السيفون ، خنقها بأصابع حديدية .

عامان على الكارثة وزينب لا تهدأ روحها ، ترفض الاستسلام للفراق كأن وحيدتها في سفر . لم تكن زينب قادرة على التحكم بحزنها والذي تحول فيما بعد إلى حنين جارف ما بارحها طيلة الأعوام التي تلت الكارثة .

انتقلوا إلى بيت آخر لأنه لابد من تغير المكان هكذا قال والد إرم لكن تغير الأمكنة لا يزيد الألم إلا عمقا ، السعي خلف الهروب يدفعنا دون قصد نحو ذاكرة الوجع .

السنوات تمضى تتسلل كالرمال من بين الأصابع وهى ما تزال في صمتها ذاك تهاجمها الشيخوخة مع كل ذكرى لوحيدتها ، صــار نومها متقطعا ويأتيها على فترات متباعدة في الليل لأنها تســتيقظ دائما على همس ترانيمها وهى تردد ســورة الفلق مراجعة حفظها ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الْفَلَقْ﴾ ، الذكريات تأرجحها على نار الشــوق لضــم ابنتها إلى صــدرها كما كانت تفعل معها دائما كلما حفظت ســورة جديدة بتجويد جيد . تنهض بصمت وبتعب امرأة تسعينية لها عظام مجوفة تجوب البيت تتفقد الباقين وكأن نسر سيجيء من السماء ليأخذهم وهم نيام فقد أخذ النسر إرم ليلا واغتالها والناس نيام ، تظل تتجول في البيت إلى أن يفاجئها الفجر ببعض الأمان المســتعار من نور الإله . صــارت عجوزا منذ الكارثة تصــلب ظهرها وضعف سمعها وبصرها .

الســنين تمضىـ وحزنها يغلقها على ذاتها ، الصــور المتخيلة لها وتخمين مدى عذابها ، لقد كتم على أنــفــاســـهــا بــثــقــل كــحــجــم الجــبــال مــاتــت بــفــعــل الخوف ، خلّف الفزع هبوطا حادا في الدورة الدموية ، أي فزع أعظم من فزع طفلة تُغتصــب وهى في الرابعة وأي أمان لزينب بعد الفاجعة .

قصة 8

أجنحة رماد



أطلقت ذغرودة صادقة تخفق بالفرح

- مبروك يا زينب ولد

قالتها بتنهيدة

- أخيرا سأسميه عادل . أجابت أمى

هكذا خبرونى بعد عشرين عاما من قدومى قالوا بأنى كنت لها الأمل الذى تمطى داخلها أعواماً سعيدة . كنت لها الحياة التى لا تعرف الظلام ، الحركة التى لا تعرف السكون كنت الحبيب الذى توقظه لتناجيه ، فى أحيان كثيرة كنت أسير مداداً داخلها لأرى مدن الفرح التى بنيتها وسيل الضحكات الجارف الذى صنعته وعواصف الحب والتسامح التى حركتها . كانت تحدثن كثيرا عن تفاصيل فرحها عن حلمها الذى تحقق بقدومى عن سنابل القمح التى أزهرت ياسميناً وحقول البرتقال التى هتفت بأسمى .

كان عمرى خمس سنوات بالكاد كنت أحاول فهم معاناتها ، تحكى لىّ قصصا عن الألم عن قلبها الذى تعرى شتاءً عن رمادها الذى توهج صيفاً ، تمطرنى بالكلمات تغمرنى بها حتى النخاع ، تحيطنى بذراعيها حنانها الزائد يضايقنى عاطفتها تدهشنى .

لا تتركنى ألعب مع الأطفال وأنا لا أملك خياراً إما أن أستمع إلى دندنتها أو أن أنام على هدهدتها .

وهكذا مرت أيامى دون حادثة تذكر أو جديد لا فكاك من سجنى كنت كالحيوان الجريح أتامل بصمت من وحدتى . فى أحد الأيام سمحت لىّ باللعب مع أحمد وعثمان لان والدتهما صديقتها كانوا يكبروننى بعامين ، عثمان كان أكثر خشونة من أحمد ، كنت أحتمله لأنه طوق نجاتى فى الخروج إلى الشارع إلى أن جاء يوم تشاجرت فيه مع عثمان شتمنى .

- يا ابن الكلب لا تلعب معنا .

لم يكن أمامى إلا أن أقذفه بالحجر ، فعلتها وجريت ، كرر شتمه لىّ ، سوف تأتى غدا سأضربك .

كانوا يضحكون علىّ بصوت عالى ، جريت دون أن ألتفت خلفى كنت خائفاً، جريت بقوة دخلت البيت ، الهم بدأ يأكلنى لماذا قال يا ابن الكلب هل صار أبى كلبا؟

لم استطع أن أحكى لأمى لكنى سالتها .

- متى يعود أبى .

- مساءً ، لماذا ؟

- لا لشىء .

احتميت من أسئلتها بصمتى ، انتظرت أبى طويلا .

حلّت العتمة ولملمت الشـــمس أزيالها مختفية ، ولم يأت أبى ، بكيت وأنا أنتظره نبض قلبى بقوة كرهت عثمان و.. قررت .

- سأذهب إليهم غدا .

نمت دون أن أرى أبى ، فى الصباح وجدته يصلى ، حمدت الله كثيرا على أنه مازال هاروناً ، أكدت قرارى بالذهاب إلى عثمان . وما أن تعالت الشمس قليلا متباهية بكبرياء ذهبت إليهم .

- لن تلعب معنا اذهب .

لم أهتم لكلامه جلســت على ناصــية الشــارع ، عثمان كان يصرـخ بقوة ثم بدأ يقذفنى بالحجارة ، جاءت أمى صدفة ورأت ما يفعله عثمان ، قبضت على يدى بقوة وسارت بىّ بتجاه المنزل

- لاتذهب إليهم مرة أخرى ، أجلس سأحضر لك شيئا تاكله

دخلت المطبخ بعد أن خلعت ثوبها كانت ترتدى جلباباً من الحرير ، كنت فاتحا فمى دون أن أجرؤ على الحديث ولم أكن أعلم بأنى لن أراها بعد الآن لأنها أضاعت حياتها داخل المطبخ .

خمســون عاما وصرختها ترعش أذنى ، طبول لا تهدأ ، أسراب بحل لا ينقطع طنينها ، ناقوس لا يستقر

سـمعت صرختها ، جريت وقفت أمام باب المطبخ ، رأيتها ، رأيت منظراً سـلبنى عمرى وسـلبها روحها وقفت مشدوداً بأسلاك الوجع والدهشة مضربا انتفض كعصفور جريح أوشك على الموت ، لقد انزلق البابور عليها وبمسـاعدة الجاز أمسـكت النار بجلبابها الحريرى لم أدر ما افعل كانت تهتف باسمى تدور فى أرجاء الحوش كحجر الرحى

- اغفر لىّ يا ربى ساعدنى يا الهى

لم أستطع الحركة لم أصرخ ولم يجرؤ لسـانى ، كنت واقفا وهى تحترق ، تشـدنى الأرض إليها وهى تحترق ، ثابتا وهى تموت تتلوى من الألم من الســنة اللهب ، تحرك يديها فى الهواء لا أدرى أكانت تطلب نجدتى أم مغفرة الرب ، لم أتحرك لأنجدها وضــمنت لها مغفرة الرب ، أخذتها النار . امتلأ الحوش بالجيران ، لم أتحرك من مكانى كنت أحس بأنى خارج حدود الزمان خارج الإنســانية لم أعد بشرـا فقدت إنسـانيتى وصرت جماداً له عينين وصـارت رماداً وما تحركت و.... فقدت مقدرتى على النطق عشرة أعوام أفتح فمى دون أن أنطق شيئا كأنما جداراً قاتما صد عنىّ الآفاق البعيدة .

العالم أضحى كأنه قطعة سوداء ، كنت اجلس ساعات طويلة دون حراك ، أحس بتثاقل فى جسدى خاصة رجلى اليمنى ، جفونى هدها الدمع ، كاهلى حناه الألم .

بت أخاف الناس أتقلص أمامهم لقد كنت مهزوما محكوما علىّ بمنظر النار إلى أن أموت بعد ثلاثين عاما من الحادثة أدخلنى أبى مستشفى الأمراض النفسية كنت أرى فيها جسر خلاصى مكثت بها سبعة سنين ، أحسست فيها ببعض الراحة كانت جميلة مؤلفة من حديقة واسعة تنتشر حولها الأشجار الباسقة الظليلة فى الوسط نجيلة خضراء ، عادة كان الصمت يخيم عليها والحشائش تمنع صدى الخطى . المبنى مكون من ثلاثة طوابق فى الطابق الأول تقع غرفتى بها سرير بملاءة بيضاء نظيفة دائما ومنضدة صغيرة عليها مجموعة أقلام ودفتر أزرق ودولاب صغير ونافذة كبيرة لأرى منها الأفق البعيد .

كنت أرى حلمى يطير بأجنحة رماد الى أرض خضراء يغلفها حب مؤلم وحلم أن أحيا كالآخرين وأشجار لا ترويها إلا دموع فراق الأحبة .

كنت أحصى أيامى كما يحصى الثور عدد دوراته ، دخولى المستشفى بعد انقضاء السبعة أعوام أصبح موسمياً ففى كل عام وتحديداً شتاءً أذهب وحدى دون رفيق إلى طبيبى ، يفتح لى باب غرفتى وفى كل شتاء كنت أفقد المقدرة على النطق وتحيطنى كآبة عميقة تتحول إلى اهتياج عصبى رغم ما يكون بىّ فى تلك الفترة من رهافة حس .

كنت ا شعر دائما وكأنى أ سبح فى بحيرة ضوء ، كثيرا ما كان هذا الإحساس يغشانى خا صة ليلا يمنعنى الإغفاءة ، كان طبيبى قلقاً لنومى المتقطع وحزنى الممتد بلا شواطئ ، روحى لا تهدأ وتفترش الوداع . لم يكن أمامى إلا أن أترجم هذه البركة الى حروف ، كانت ولادة الحروف متعثرة ثم صارت شلالاً من الكلمات ، الكتابة كانت كالمخدر لكل آلامى تسكّنها تهدّهدها لكنها لا تقضى عليها . لقد أصبحت الذكرى جزءً منى كائناً يرفض الانفصال ، سنين طويلة والوجع جاثم على صدرى وزفرات الضلوع تسمعنى حشرجتها ، الكتابة كانت تعرف كيف تزيل همى التفكير فى صفحات الكون كان يشغلنى . لم أشأ الاختلاط بأحد فى المستشفى أحاول دائما أن أتقوقع داخل نفسى وأسبح فى نظراتى الجامدة وحاجبى المتوترين القلقين ، أحاول أن أكتشف الأماكن المنسية داخلى ، كنت أمارس وحدتى بطمأنينة فى بعض الأحيان أحاول أن أدخل فى نفسى لأرسم لوحة لأمى لكنها دائما كانت خطوط سوداء ، أ سهم تشير إلى حياتى حياة عادل حسن المليئة بالأوجاع ، كان علىّ أن أقيم وأرتحل معا أهى لعنة المقام فى صمتى الذى يميتنى ثم يحينى آلاف المرات أم هى لعنة الحب والشوق إلى الجمال الإلهى .

اللوحة محمومة وتهتز جوانبها وأنا أحاول أن أعد خطواتى نبضاتى وأوجاعى ، يقولون المرء يبدأ حلمه حيث ينتهى ألمه لكن أنا يبدأ ألمى مع بداية حلمى ويائسا أحاور الريح عن هويتى عن حزن يرافقنى .

خمسون عاما وأنا أتكسر في كل يوم كزجاجة رقيقة ، قلبى مازال شفافا خجولاً يحلم بالسلام ويعشق الجمال أينما وجد ، خمسون عاماً وروحى لا تعرف الاستقرار ولا تقبل الترميم مدينة مهجورة أورثتها الأيام سيل كلمات جارف وحاشية وجع ، مدينة بلا حدود نظراتها تائهة وشوارعها لا مبالية .

خمسون عاماً وأنا أبحث لنفسى عن مرفأ أمان عن مرسى حب عن شاطئ يمنحنى الدفء . جار عليك الزمان يا أمى ولم تنحن له مزقك بمخالبه صارعته عشتك حياتك تحلمى بىّ ولم تتوقعى من الزمن عطفاً والآن أنا احلم بممرات الزهور لكن القدر لم يعطنى زهرة واحدة وأعود لأتحسس نفسى فأجدها قد صارت شيئا آخر بلا ملاح

قصة 9 الشرخ

هاهو يطرق الأبواب ويستعطف أهل السماء أن يمدوا العباد بالصبر وحسن الختام ، للمرة العاشرة أعاد فتح النافذة لفحه من جهنم أحاطت به ، السراب كأنه السنة لهب مع أن الوقت صباحا ، فى كل مره يغلقها ليفتحها يرسل بصره بعيدا فى السماء ليعود إليه خائبا مرتبكا ، يصتاد نقطة فى الأفق محمره وظمأ ، قلق هو لا يدرى أينظر إلى السماء أم إلى الأرض الممتدة أمامه تزينها كثبان من الرمال فى أشكال دائرية ، أيغلق النافذة أم يتركها مفتوحة وبدلا عن فعل شيء انتقل ببصره يراقب طابور النمل الطويل الممتد من عتبة الغرفة الوحيدة بالمنزل وحتى الراكوبة .

القلق فطر قراره .

تخطى الثمانين وهو لا يدرى إلى الآن أكان خير له لو ترك هذه القرية وهاجر إلى مكان ما ، سؤال الرحيل وقرار التردد ، سؤال ينتصب أمامه عشرات المرات فى اليوم دون رد ، سؤال عركته الأيام واستهلكته الأحداث واستباحته رمال الصحراء . كان تائها بين سر السؤال وسحر الصحراء الذى جعل القرار مستحيلا .

أغلق النافذة وخرج الى الشـارع ، جلس على ربوة صـغيره ، مسـح البيوت ببصـره ، خمسـة عشرـ منزلا هى روح القرية مبنية من الطين ، حتى ا لذين يتزوجون يكتفون ببناء غرفة وا حده دا خل مسـاحات منازلهم الممتدة ، الطريق كئيب والجدران لا تحتمل عواصـف الشـتاء القارص الذي يميز شمال البلاد ، منزله ذلك القبو هو أكثر المنازل بؤسا ، يقع فى زيل القرية ويتألف من غرفة واحدة من الطين وراكوبة طويلة فى أحد الأركان .

غربة كثيفة أثقلت صـــدره عندما تذكر حفيده من ابنته التي توفيت قبل أعوام وتركته ، هاهو الآن فى العشرـين من عمره ، فتى رقيق الحس ، نحيل ودقيق الملامح ، خجول وتنكفئ نفســه على جرح غائر الوجع ، يفيض من جنباته حزن ما ، تلفت باحثا عنه ، بلع ريقه ، شمس الصيف بدأت تلسعه بأشعتها ، جاءه صوت محجوب متواريا ضعيفا ، أشار إليه .

تعال يا محجوب .

زحف إليه لم يره مقهورا كما رآه فى ذلك اليوم ،كأنه غير محجوب الذي عكف على تربيته خمســة عشرـ عاما ، بقايا دموع فى عينيه الغائرتين وآثار جوع على شـفتيه ، مناخ جاف يحيط بملامح وجهه ، خطواته كأنها ترنحات قصبة جوفاء فى مهب الأيام.

سيصل الباص القادم من الخرطوم قريبا اجمع ما عندك من بسكويت واذهب إلى المحطة .

حاضر يا جدي . حديثه كأنه أنين .

دخل الغرفة متجها ناحية الغرفة ، ابتلعته ظلمتها ، تحسس قدره ، وجد الكرتونة دون أى مشقة لأن عينيه اعتادتا الظلام ، خرج دون أى تحية .

الشارع كان مقفرا يلفه سكون كسكون التوابيت حتى جده اختفى ، كل الأبواب مغلقة لا أحد على الطريق ، الوقت صباحا والشمس تلسع بأشعتها وجهه وكل أجزاء جسده منتهزتا تلك الفتوق التي على جلبابه المتسخ ، يسير بخطوات متأرجحة محاولا سحب الهواء ليتنفس ، الطريق إلى المحطة طويل والرياح تنوح بصوت مركب ، سار شرقا حيث بداية تناثر المنازل ثم انحرف يمينا بمحاذاة كومة من التلال الرملية ، أو شك النهار على الانتصاف ، كان يسير بصعوبة نوبات الصرع المتكررة والمتقاربة في الثلاثة أيام الأخيرة أنهكت جسده وسوء التغذية بدأ واضحا على ملامحه والرمال الرامضة الرخوة تغتصب السرعة وتجعل خطواته بطيئة . الألم يزحف والصرع لا يرحم زبده يقرفه ولكنها مشيئة الله ، فى السابق لم يكن مرضه يخجله

ولكن النوبات الأخيرة أتاحت لكل شباب القرية رويته ،أحس محجوب أنه بقايا إنسان ، شي ما له قدمين ، حالة اكتئاب غريبة تزحف داخله ببطء وتحتله ، التنهدات أثقلت كاهله وهدت الزفرات الموجعة أنفاسه ولا متكأ يبكى عليه ، تفجر العرق من جبينه ، هدوء كسي المكان زاد عذابات النفس وضوحا ، ضج العويل داخله أحس بالنوبة والرمال تشتعل من تحته ، تلفت المحطة ما زالت بعيدة سيستقبلها على الرمال وهذا ما كان ، انتفض بعد الانقضاض ، تلفت هو دائما يتلفت .

اجتهد محجوب فى أن يجد ظلا يجلس عليه ، فشل ، ابتسم ساخرا .

تلك هي حياتك يا محجوب لا أب يخفف عنك أشعة الشمس ولا أم تشكى لها همك .

محجوب ......

جاءه النداء وكأنه نابع من بئر عميق تخلو منها الحياة ، التفت محجوب إلى صديقه عثمان كان قادما من طرف الشارع المواجه له بدأ له و كأنه لسان سراب يتلوى الرؤية تخذله وهو يتستر عليها .

أهلا عثمان ، تعال.

لماذا تقف في الشمس هكذا ؟

ولماذا أذهب إلى الظل ؟

رجعنا مرة أخرى إلى ذلك الكلام الذي لا أفهمه يا محجوب .

جلس محجوب قرب كرتونته .

محجوب أرجوك لنذهب .

لكن محجوب كان في عالم آخر تحت مظلة مشــاعر الفشــل وبأنه مقهور ، لاحت من تحت رموشــه حبيبات لها لمعان الدرر أذهلت عثمان .

محجوب ألا تسمعني هيا بنا إلى الظل .

حمل محجوب كرتونته ومضى خلف صديق عمره .

أرجوك يا محجوب حدثنى هل تعانى من مشكلة ما .

حياتي هي المشكلة يا عثمان .

باكرا على هذا الكلام .

ســكت محجوب فترة ، ســحب نفســا إضــافيا تلفت دون التوقع برؤية شيء ، ظل معلقا بصره بالأرض ، قال بعد وقت طويل .

أحس بالرحيل.

الفهرس